وصيَّةُ شهيد لولَدِهِ القادم

القندول

وصيَّةُ شهيدٍ لولَدِهِ القادم

مقالة كتبتها الصحافية "ليلى" بعد زيارتها البلدة أثناء الحصار الطويل، اقتبستْ ملامحها من الملف الذي قدمه لها الصبي "ساجد" وفيه نسخة من وصايا شهداء "يُحْمُر"، نشرتها تحت العنوان التالي: (وصيَّةُ شهيدٍ لولَدِهِ القادم).

أيها القارئ العزيز

ما سأذكره بعض من وصايا شهيد يُحْمُر، كتبها لمولودِهِ الذي أبصر النور بعد استشهادِه بشهرين، وتحاكي هذه الوصايا سيرةَ بلدة، وقصَّةَ شهيد، وتاريخَ وطن:

... ويتابع "علي" محادثة الجنين الرَّاقد في أحشاء والدته متأمِّلاً مستمعاً مستمتعاً. والعائلة جالسة على شرفة المنزل:

القمرُ بدرٌ في أبهى مظاهره يعكس النقاء المتمثِّل في براءة الطفولة، نسمةُ صيفٍ ناعمة تداعبُ وجهي، السَّماء تتلألأ بمصابيحها، نيزكٌ يهوي من هنا، ونجمة تفرُّ منه إلى الجهة المقابلة، هرباً من غازٍ يحاول تغيير ناموس ارتباطها بباقي الكواكب، أوديةٌ عميقةٌ تسترقُ النظر

محاولة محاكاتي، أتلمَّسُ خجلها الدَّافق الذي يطفو على سطح ماء النهر، تحاولُ خنق هديره وتبديل لونه إلى بياضٍ يعكس بريق القمر..

سيلُ الضوء المنبعث من مقلتَي "ساجد"، المتربِّع جانبي والمتأبِّط بذراعي، درءًا للخوف الآتي، من سكون الليل تارة، ومن أصوات الانفجارات القادمة، تنقطع سحب الحبِّ التي نسجها الله، وحقدُ البشر وجهلهم ينثرها أشلاء..

و"فاطمة" تلاحق فراشة اختلط الجمال بألوان أجنحتها عبر أعمدة النوافذ..

ويتابع الشهيد "علي" ..

في هذا الجوِّ الملائكي المفعم.. يقطع تأمّلي إحساسٌ جميلٌ بالرحيل..!

إنَّها صدمةٌ أخذتني من رحلة العشق في أحضان الطبيعة، إلى صخب القضايا العالقة في زمننا الذي نحيا، بدأتُ لملمة أشلائي مخافة أن يشتَّ بعضها، وإذ بي أراكَ ولدي وأعرفك، أخشى عليك من الوحدة، سواراك تحاولان ممازحتي، فتصطدم بزجاج الصورة المعلَّقة على جدار منزلنا، أحتَسِسك، تتلمّس وجنتيَّ لتشدَّ شعري، أداعب وجهَك وأنتَ تتطايرُ فرِحاً، وتتفتَّح براعمُك في بواكير أيامِكَ السَّاحرة...

صوَرٌ جميلةٌ قلّبت كياني، قصدتُ المكتبة، وقرّرتُ حينها أن أعيشَ معكَ في طفولتِك حيث عشقي لعينيك الصافيتين، كي أودِعَك ما استطعتُ من حبّي، وبعضاً من تفاصيل أيامي، لتعيشَ معي في ترعرعِك، وترى الأشياء من خلال أسطري وتأمّلاتي، علّه يتحقّق الحلم الذي أقلقني طويلاً ..

أية طفولة ستحيا يا ولدي، والفارق بين تولّدك وولادتي خمسةٌ وعشرون عاماً..؟

أرى فيك المولود الذي أتبادلُ معه العشقَ من بعيد، وأنا الذي امتلأ شوقاً للقائك، وهيامي يقتلني للكأس التي لا أظمأ بعدها أبداً ...!

يتابع "علي" بل "غالب"، وذاكرته تعود للبعيد البعيد..

بيوتٌ عتيقة، وأمٌّ يعتصر الألم قلبها وتجعدات الهمّ وقهر الزمان، وهادٌ ترصّعها ورودٌ أحببتها منذ طفولتي، وأطباق النرجس شتلاتٌ أبَتْ إلاّ استئثار جدران القلعة-الشقيف، لتباهي بها كل القرى المنثورة هنا وهناك، قناديل الزيت رغم شدّة أذاها استحوذت نظري ككلِّ المولودين حديثا..

عشقٌ للنورِ وتطلعٌ للآفاق ...!

ثمَّ يضيف "كمال" مخاطباً مولوده القادم: أطلقتُ

حبيبي أولى صرخاتي في هذا الجوّ الحميم على الرغم من برودة الطقس، اختبأت النجوم في غياهب الكون، القمر ارتحل إلى الجهة الأخرى طلباً للراحة والسكون، والريح تطلق زعيقها في كلّ الاتجاهات، فتُحدِث صخباً وفوضى عارمَين، البرق إشعاعات تخترق الجدران والنوافذ لتتّصل بالأعصاب، فتثير الرّعب في القلوب الناعسة، والرَّعد يبعثر ما تبقّى من رباطة الجأش.

أكوام الشيب والهرم ترتعد في الزوايا، والسماء تطلق العنان للمطر بالهطول، لم يتردَّد، انهمر كأنها الليلة الوحيدة المتبقية من شتاء الدنيا..

يبتسمُ الجمع من حولي ويتنفَّس الصعداء، كأنَّ أيام كربهم انتهت، أحسستُ بذلك حينها بالرغم من قلّة درايتي..

مولودٌ فتح عينيه ليدرك عينَي أمِّه تفيضان بالدَّمع لغزارة الحب، إنَّه "كمال" تنهَّدت أمي وقالتها بعد كلّ هذا العناء، النسوة حلقة مغلقة أبوابها، تلك تبارك المولود ببعض الآيات، وأخرى تنظر إليه ببسمة مع بضع تمتمات، إنَّه آخر العنقود، حبَّة متورّدة تستقبل الشمس، وتودّع النور عند الأمسيات..

بدأتُ رحلةَ الحياة في بيتٍ يهجره البردُ من النوافذ،

ليتسلّق عبر الشقوق الموزّعة في الجدران، والدان مكبّلان بقوت اليوم وظلم القدر، جباهٌ جنوبية القسمات، سمراء نضِرة على الرغم من تيمُّمها الطويل بالتراب، سنابل القمح تتمايل وفي كل سنبلة مئة حبة، وأكوامُ عزمٍ هم إخوتي لا حول لهم..!

يزفر "يوسف" الآهات ويتابع حديثه: حزنٌ قدريّ وصبٌر على القهر يتنامى مع نمو جسدي، أضواء الطرقات المفقودة لا تصل، كي تنبئ بوجود البشر في تلك الجهة القطبية من الوطن، ووالدٌ تزداد لمساته خشونة يوماً بعد يوم، عشقه للأرض والقُنْدُول الذي أدمى يديه زاده ولهاً بها..

يا ولدي: إنَّ للقُنْدُول في وطنك الذي ستحيا معاني أخرى في رحلة صراع البقاء..

أحاسيس ورائحة العرق الزكيَّة تفوح من الحقول، وتعنّتٌ يهوديٌّ يزداد همجية مع ازدياد عمر الجسد والأمة، وتكبر لائحة المجازر التي تعكس وهج حضارة هذا الشتات المبتذل، تَلَمْلَمَ كالقطعان ليرقدَ على صدرِ هذه الأمة، يهشِّمه ويطبع عليه خارطةً تتناسبُ مع شراهته، فتكتسبُ أنظمتنا مع كل هزيمةٍ أسلوباً جديداً في فنّ التضليل، ومع كل مجزرة تتذاكى حكوماتنا بغباء، وتدّعي بلا حياء: إنَّ قوّتنا تكمنُ في ضعفِنا..

لهذا ترانا يا ولدي كلَّما كبرنا يوماً تنامى ضعفنا وكبر.. حتى باتت الهزيمة جزءًا أساسياً في عقولنا وعظامنا، وكأني بهم يحاولون تغطية كلّ تاريخنا الحافل بالتضحيات والانتصارات، بتراكمات غير متناهية من الضعف والهزائم، لتَرِثَ أنتَ ورفاقك تاريخاً ذليلا، ومستقبلاً قاتماً لا أمل فيه ولا رجاء.

حطَّ هزيمة حزيران بثقلها فوق هذه الأمة، الاحتلال يتمادى، رائحة الموت وشبح الخيانة، غزَتْ أحلام الناس بعد أن تأصَّلت فيهم روح الهزيمة والخنوع..

في هذه اللحظات شعرتْ والدة الجنين بهياجه، إيذاناً منه بالغضب والاشمئزاز، كأنَّه يعبِّر عن رفضه المجيء إلى هذه الدُّنيا، تبسَّمَ "حسن" له وطبطب عليه برفقٍ علَّه يريحه، وقال له: اصبر، هذا بالضبط ما يُرادُ لك، وشتَّان يا ولدي بين ما يريدون وما نريد..!

هدأ الجنين وأكملَ إصغاءه، وتابع "حسن" حديثه مع جنينه:

قلَّبتني الأيامُ بين راحتَيها المرصَّعتين بالتضاريس المحدودبة، داعبتْ نعومةَ طفولتي بتناقضاتها، حاولَتْ غرزَ همومها في مساماتي، فأحْدثتْ طياتٍ شائكةً فيها.. تؤلمني تلك التقلّبات..

كيف لطفولةٍ غضَّة أن تتوسَّد التراب بين أثلام

التبغ، تدخل رائحته عنوة لتلغي إمكانية تذوّق عبير النرجس، وشذا الأقحوان الموزَّع في سهولنا والوهاد..؟

بل كيف لهذا الجسد النديّ أن يعانقَ سنابل القمح، ويحتمل خشونة احتكاكها..؟

الطائرات العدوّة تأخذ شكل الوحش الكاسر. هديرها يطغى على خرير انبعاث الينابيع المنبئة بربيع جديد.

تتوالى الحياة في جنوبنا مع توالي الأيام، تفيض في أزقّةٍ مبعثرة، حوّلتها جنازير الدبابات وشظايا الموت إلى معارض لأشلاء البسطاء، اللاهثين خلف لقمة العيش في زوايا يستظلّون بها من أعين الغزاة، وقذائف الدمار التي يحملونها إلينا في أعياد ميلادنا..

يأتي الاجتياح الصهيوني في العام ١٩٧٨. فيصبح النهر الذي أعشق ترانيمه، متراسنا الوحيد الذي نحتمي به، يعيق زحف جنازيرهم التي تجلب القهر والذلّ ...

تبدَّلت خارطة الكرة الأرضية، قرى كنا نعرفها "ببلاد بشارة"، ابتكر لها الاحتلال اسماً جديداً. فحفظه الجميع عن ظهر قلب، "الشريط الحدوديّ" بات خارج حدود الوطن، يتفاقم إحساسنا بالإحباط.. ننتظر كرم ذاك الغول البغيض، لنعرف حدود شهيته. هل سيكتفي بهذا..؟ أم سيقضم المزيد..؟

عدوٌّ شره.. أنظمةٌ مهزومة.. أحزابٌ تسلَّل الإحباط إليها وعشقها، فصار العشق متبادلاً. وشعبٌ لا حول له ولا قوة، صودرت بوصلته فأصبح يمشي خبط عشواء.

يتابع "موسى" سرد شذرات من تفاصيل حياته مخاطباً ولده المتعب: هكذا قضيتُ سنواتي الأولى، كنتُ أرى الإحباط على وجوه المحيطين بي، لم أستطع تأويله حتى بلغتُ الربيع الثالث عشر، فهو ليس ربيعاً بل خريفٌ أصفر يعود إلى ما قبل العام ١٩٤٨ ..

وكرة النار تعشق هذا اللون وتكبر ...

لياليا غاب عنها قمرها، فالقمر بفطرته ينفر من الانحدار.. شمس نهارنا متعبةٌ تُحاول تطهير واقعنا ولم

تقدر..كل أمطار عيوننا وفصولنا لم تستطع مسح لون الضعف وأثر الخيانة عن معالمنا..!

يتابع "جودت" حديثه: ثمَّ كانت ليلة مكفهرة غاضبة، استفقتُ فيها على أصوات الرعد وزمهرير الشتاء، كانت الطبيعة التي انتظرتُنا طويلاً، لكن عبثاً كان الانتظار، فقررتُ أخذ المبادرة، شدَّني تواصل البرق وأقلقني صخب الرعد، اتَّكأتُ على زاوية في صحن الدار المسكون بالعشق والإخلاص.

قصفُ الرعد امتزج وأصوات الانفجارات، الموتُ يتجوّلُ بين القلبِ وأشلاء الجسد، رعشةٌ تصيبني، أحاول الهروب من نفسي إلى عالمٍ لا رعب فيه ولا خوف، أعود إلى فراشي، أطمر نفسي بكل الأدثرة المتوفِّرة محاولاً الهروب، فلا أستطيع، يتبعني الخوف وصوت الرعب وأعود، بقيتُ على الحال ساعات متنقلاً بين الوسادة والحائط..

هجرني النعاس والوسن..

البرق يزداد سخونةً، امتدَّ الضوء لينير الدنيا، بدَتْ أحجار القلعة، لمحتُ النرجسات قد اصطفَّت منتصبةً على سطحها، أسراب السنونو تتمايل استعداداً لإنهاء ترحالها الطويل..

تتَّسع دائرة الضوء، صدحُ انبعاث الينابيع يُسمع

أكثر من أزيز الطائرات، الليطاني ازداد غزارة، انبلج الأقحوان وعانق البيلسان المنبعث من قلب الصخر، تهامسا، فازداد الدفء...

مئذنة يُحْمُر نفضتْ عنها صدأ السنين وأطلقت ترانيم الفجر، تطلُّ الشمس بشعاعها الفضفاض المميَّز من خلف القلعة المختالة على ظهر السفح...

يروح الجنين ويجيء متسائلاً معاتباً بصوتٍ ملائكي، لماذا لم تبدأ الحكاية من ذلك الربيع، ولم تمسح الظلمة عني كلّ هذا الوقت..!؟

كدتَ تقتلني يا أبي..!

يقول هذا ويستنفرُ كلَّ حواسه ليسمع جيِّداً ما تبقّى بشغفٍ وحماس..

أحدِّقُ به ملياً، محاولاً معرفة السِّحْر الذي بدَّل حياة هذا الجنين، وهو لم يرَ قلبه جمال الضوء، ولم ترَ عيناه بعد نتاج الجراح ولا خاتمة حكايتي الوصية..؟

وكيف بهِ لو شاهد بزوغ ذاك الصباح الجميل..؟

سبحان مبدِّل الأحوال ...!؟

سأل "رفعت" نفسه، ما كل هذا التناقض وماذا يجري..؟

ليلٌ كئيبٌ مخيفٌ والناس نيام، يليه شروقٌ جميلٌ وهتافات..!

كيف لمثلي أن يحلَّ رموز الكون..؟

واقفٌ أنا، مسمَّرٌ، أحدِّقُ، يتسارع بصري رغم إرهاق مقلتيّ، أحاول اللحاق بما يجري، إنّه حلمٌ، لا يعقل أن يحدث هذا..؟!

أدخل إلى الغرفة، أرى الكلَّ نياماً، لا إنه ليس بحلم، فأنا أسيرُ وأرى الأشياء وكلّ دمي يرتعش، لو كان حلماً فإنه جميلٌ يخاطب "رفعت" نفسه.

عدتُ أدراجي لأكمله، فيتراءى ضياءٌ يخترق إشعاعات الشمس، يُبرز ألوانها الزاهية، ويعطيها حجماً أكبر وقدرة أقوى على الاستنهاض، تخرس في هذه اللحظات أصوات الاستكانة المعشعشة بين تلافيف القلب دفعة واحدة، ويتردَّدُ صدًى هائلٌ يوصلُ الأودية بعضها ببعض ويُلغي الحواجز من شرق الدنيا إلى يُحْمُر.

يُطرق "رفعت" في التأمّل، فيُكمل "أبو مصطفى" السيرة-الوصية: تخترق جدائل الشمس زجاجاً أحدثت فيه قذائفهم أقنية مبعثرة، تسقط على ناظرَيَّ فأحسُّ بدوافع النهوض، إنه أول يومٍ تغازلني فيه عروس النهار دون حواجز، منذ أمد لا أستطيع احتسابه، أنهض مستجمعاً كلّ قواي.

أقف على الشرفة الممتدَّة من جنوب المنزل إلى

شماله، مروراً بالشرق المطلِّ على الفجر في بواكير الأيام، الدفء عاد لينتشر في جزيئات كياني، أَتَّبعُ النور، فيتقاذفني الصدى بين جنباته، شهدتُ توزع الإشعاعات على بيوتات البلدة الغارقة في النوم..

بقيتُ أنتظر نصيبنا، وإذا بالشقوق المبعثرة في كلِّ الزوايا تتلألأ بنورٍ لم أعهده قبلاً. أسرعتُ لأشرِّع الأبواب والنوافذ، سلّمتُ وجهي، وشرَّعتُ قلبي، وأغمضتُ عينَيَّ كي أختزن الأقصى.. عشقته، وهو وفيٌّ لعشاقه..!

استفاق الجميع وعمَّت الفرحة القلوب المتعطِّشة لمسحة أمل، بدأت أسراب البوم تجرُّ شؤمها وترحل، أخذني المشهد وكاد يُنسيني صلاتي التي أؤدِّيها تكليفاً قبل تكليفي بخمس سنوات، أتممتُ واجبي قضاءً حينها، ولم أنزعج للتأخير الذي حصل، أحسستُ بأنَّ في صلاتي يومها تحوّلاً سأبلغ بعده المدى اللامتناهي.

اتَّسعت دائرة النور بداخلي، أنا أحتسَّسها، تحيط بي من كل جانب، أستمرُّ على هذه الحال أبحثُ في ذاتي عن متَّسع للجمال، أعبُّ من منهل هذا الإسلام العظيم في كل لحظة من لحظات حياتي، حسم عقلي ووجداني الأمر، يجب ألاَّ أفوّت هذه الفرصة الإلهية العظيمة.

يتساءل "أبو مصطفى": من أين لذاك الصهيونيّ

المتغطرس أن يفقه قوة الآيات البيِّنات وقدرتها الإعجازية..؟

اجتياح ١٩٧٨ ومعاركه الرابحة مع العرب زادت من غروره، حالة شعبنا المهزوم ما زالت راسخة في خياله العسكري، فيحاول إطفاء هذا النور القادر على فضح ظلماته، لكن هيهات هيهات.. إنَّ الله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون..!

فتح شدقيه وكشَّر عن أنيابه ليقضم المزيد من الأطفال والآمال والأراضي، تصل جحافله إلى قلب الوطن المزَّق بأسلاكهم الشائكة، هادفةً استئصال شرايينه من جذورها، الجميع يهرول أمامه، بل أغلبهم يهرول باتِّجاهه، سوى قلَّة قليلة استفاقت ذاك الصباح على وهج الضياء المتسربل عبر النرجسات المتألقة.

تلك القلَّة أيقنت أن الظلام لا يخنق الضوء، إنّما النور هو الذي يفضحه ويكشف قذاراته، كيف لا؟ وبوصلة الزمن حدَّدت الهدف منذ زمن ليس بقديم، حين أطلق رسول البشرية محمد بن عبد الله "ص" ثورةً مستمرةً حتى موعد السِّرِّ الإلهي.

يستمر الغول في غرز أنيابه في جسد الوطن، يتابع "أبو مصطفى" كلامه:

فبدأتُ رحلاتي، يمَّمتُ وجهي وانطلقت صوب

عاملة، أمارس عشقي كما أشتهي، وشوقٌ يغمرني لتفتُّح أزهار القندول لحظة انبلاج الفجر، تسحرني سأسأة الندى الممزوج بعطر الليمون، أتحسَّس صلابة السنديان وتمايله بثباتٍ بين السماء والأرض على ضفتَي النهر.

لقد شعرت يا ولدي بسنديانة تنتشي بالنسيمات الناعمة من بساتين "صور"، تنقل رسائل المجاهدين، تُخبِرنا سرًّا، كيف تحوَّلت لؤلؤات الليمون إلى قنابل موقوتة، توزِّع أشلاء الصهاينة على طول البلاد، وكيف حملت الطيور أخبار الوديان والفتيان والأزقة إلى عواصم الأمة المتباعدة.

يُكمل "إسماعيل" تلقين ولدَه الوصية: يا ولدي..

قصدَ "جبشيت" وشيخها الجليل السالكون نحو الضياء، حباً، رفضاً، موقفاً، وسلاحاً يَصلْيه قُبَيل الفجر، ليُصلِّيه قبل شروق الشمس، حرباً، غضباً في قلوب الأعداء، وشاهداً، صفعةً على وجوه الأعراب، يبقى سائراً للأمام بدون وجلٍ أو تردّد، ونحن خلفه نهتدي من طيب شذاه، ثمَّ يسقط دمه، وبيد الله ينمو..

يكبُر الغضب وتتَّسع حلقة العابرين..أئمة.. مجاهدين.. قبضات عزّ..

صرخات رفضٍ أطلقتها نساءٌ عشقن زينب، خرجن من المطابخ بالزيت وبسكاكين أبتْ أن تتدجَّن..!

لا فرق بين الجميع، القادة يستشهدون والأبناء، يُعتقل العلماء لكن أصواتهم في المساجد تبقى، إنها الحقيقة الآتية بلا ريب، حلم بني صهيون يتبدَّد، وشعار "إسرائيل الكبرى" بدأ يترنَّح.

يتابع "أبو ساجد" تفاصيل الوصية، ودمعة اغرورقت في عينيه، لعلَّه قد قصَّر؟ يُودع جنينه ما تيسَّر له من الذاكرة، ويقول:

معتقلاتٌ استحدثت هنا وهناك، شرَّفني يا ولدي أن التحقتُ بأحدها إثر نوبة عشقٍ كانت تغمرني، ورفدتُ النَّهر عند بوَّابة الجنوب خلال مواجهة مع أولئك الشياطين..

أرادوا يا بني أن يكون معتقل "أنصار" سجناً للإرادة والعزيمة، ومكاناً للموت البطيء، لكننا حوَّلناه إلى مدرسة حقيقية للإيمان والإباء..

يتراجع اليهود وينسحبون، يلاحقهم فتية بلادي، وصلابة قبضات الرجال وعزيمة قلوب النساء، ترفضهم الأرض وعيون الأطفال، نقلوني بعدها إلى معتقل "عتليت" في فلسطين المحتلَّة، فكان الانتقال بمنزلة تدرّج الطالب في مدرسته..!

عبيرٌ عامليّ امتزج مع عطر "الخليل" وبساتين

"بيسان"، إيمانٌ نقيٌّ والمسجد الأقصى في القلب، بات في مدى العين واليد..!

عامٌ من الدراسة والمثابرة بكلِّ معاني الصبر والشجاعة وصلابة الإيمان، تخرَّجتُ بعدها ولم أطل الانتظار، بحثتُ عن الشهداء لأستزيد من دروس العشق والثورة والرصاص..

رأيت الإحباط قد بدَّل وجهته، عويل اليهود تحمله طائراتهم لتودعه البيوت التي بُنيتْ على أنقاض دور فلسطين، تتطاير حمائم "الجليل" لتبثَّ أخبار الفتية، فكانت ثورة، ترميهم بحجارة من سجّيل، يمتزج الدم مرة أخرى ويصوّب اتجاه البندقية، ويردِّد الشعب كله: "اقتلونا فإننا سنعي أكثر فأكثر"..

يُكمل "أبو ساجد" بصوت خافت، بُنَي: إنَّ عشقي جعلني أسترسل في الحديث عن عظمة أيامنا التي كتبناها بالدم، لندَّخر مستقبلاً يرثه عباد الله الصالحون.

ولدي.. لن أحدثك عن جراحاتي الكثيرة، فلها بقية سأترك لك ملامسة أعماقها أثناء تجوالك في القرى، وأنت تحتضن الأودية والجبال، هناك ستجد رائحة دمي فوَّاحة تَهَبُ الياسمين شذًى مميزاً، ورايات النصر المنتصبة في

السَّاحات وعلى التلال، تعكس حجم الجراحات وعمقها..!

حتماً زيتونات "زوطر" الغضَّة بعد، ستحدّثك عن دمائي التي فرضت الانتصار، أقحوانة نبتت على سفح ربوة ملكت فؤادي، لا تزال تحتفظ بالسرّ الذي أودعتها، وكنائس الشريط بات لترتيلها لحنٌ نبويٌّ يداعب كنائس المهد في بيت لحم..

صرخة "يا زهراء" تتردَّد عند "الخردلي" فتدبُّ الرُّعب فيهم، تسمعها صبايا "مركبا" فيسبِّحن الخالق صباحاً ومساء، أما الليطاني توأمي، فسيروي لك الكثير الكثير من قصص البطولة التي شهدها، بل كان شريكاً في معظمها..

"الطيبة"، "العديسة"، "رب ثلاثين" وغيرها من معاقل العزّ والإباء، ستفتش عنك حبيبي لتخبرك المزيد من الحكايات، إخوتي الشهداء الذين سبقوني سيحدّثونك يوماً ما، وشهداءٌ يتوضأون قُبيل الفجر من ينابيع الطهر في عاملة، سينهلون من دمي لينثروه على تلَّة لم أتشرَّف بالوصول إليها..

ويُحْمُر ، أمّ الشهداء التي التحمنا بأديمها فأنبتت مجداً، وأوفياء يحقّقون الوصايا ويحفظون الأمانات، سترى يا ولدي فيها وفيهم قسماتي، فانظر في عيونهم تتلمّس عزمتي وثقتي..

يتابع "أبو صالح" القول: آه يا بني..

ماذا أحدثك عن أيامي التي مضت، وعيوني شاخصة نحو مستقبل أتحسَّس فيه النور يفيض من عينيك، فأرى في قلبك متسعاً للحبِّ والعطاء الذي أعجز عن بذله بعد موتي، وأرى في وجهك كلَّ السَّماح، وفي قسماتك كلَّ الحنان، وألمس في قبضاتك كلَّ الإرادة التي ستذيق اليهود الخبثاء اليأس، بعد أن كلَّت قبضاتي عن المزيد، وفي تواصلك مع أبناء الشهداء وشدّ عزيمتهم استمرارية لما بدأت.

إغفاءة قصيرة يستيقظ منها "أبو صالح" يكمل بعدها الحديث مع جنينه الرَّاقد في أحشاء والدته:

ريحٌ كدمعةٍ في عينِ حوريَّةْ
فراغٌ كأرضٍ هجرها القمرْ
ورودٌ شحوبها بيت عزاءْ
تلاشٍ كامتداد البوادي الكسولْ
كنومِ البوادي الطويل الطويلْ
كلَيلِ الرَّحيل،
وبُعدِ المسافر..
كإحساس أمٍّ بطعم الفراقْ
ولستُ أبالغُ حين أقول:

السَّماء ملبَّدةٌ بَيدَ أنّي
أرى ما وراء السَّماء.
ولستُ أفاخرُ حين أقول:
سأسقي الشوك في قلبي
لأنّي مدركٌ أنّي
سأجني، في ربيع العمُرِ
أزهاراً وعوسج.

ويختم "نزيه" وصيته والسِّيرة متوجِّهاً إلى ولده القادم بعد حين:

بُني.. بعد أفول كلّ شتاء يتفتَّح ربيع، لا تتوقَّع السَّكينة في مهبِّ الرِّيح، ولا الدفء أيام الصقيع، إيَّاك ذرف الدمع على الأمل الذي غاب، في كلِّ يومٍ أملٌ يولد وأملٌ يموت، فانتظر يوماً يولد فيه أملٌ لا يموت..

اسكنْ في أعماق وحدتِك، واعشق جمال النور، ولا ترهق نفسك في البحث عن الجمال، لا تتسلَّق الجبال ولا تفتِّش السّهول، سيأتيك متطوعاً إذا ما بلغتَ قلبَ الحياة المضيء..

ولدي.. تلك هي بعض محطات حياتي القصيرة العامرة، أهمسها لك، بدأتُ كتابتها في بدايات القرن العشرين، وها أنا أختم نهايتها في يوم لم يأتِ بعد، لكن

صيرورة التاريخ، والحقّ ، وأنت يا ولدي، ستوقّعونها بدلاً عني...

تطايرت الأوراق على ربى عاملة، وريح طيبة نثرتها فوق ربى فلسطين، وبعد شهرين أبصر مولودٌ "عليٌّ" النور، قلّب الوديان والتلال، لملمَ هذه الأوراق، حفظها ليرسلها إلى قلوب متعطّشة، من حدود الدنيا في الشرق إلى مساجد مرّاكش في الغرب...